الحزن في حياة رسول الله
– صلَّى الله عليه وسلَّم –

الطبعه الأولى أبريل ٢٠١٢
رقم الإيداع: ٧٥٠٢ / ٢٠١٢
I.S.B.N: 978 – 977 – 6337 – 86 – 2
غلاف: عبد الرحمن الصواف
تصحيح لغوي: محمود الغنام

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
© دار دَوِّنْ
١ شارع السعادة
نصوح - الزيتون - القاهرة
تليفون: ٠١١٤٩٢٨٩٢١٤
E-mail info@dardawen.com
http://www.facebook.com/DarDawen
بالتعاون مع موقع دار الكتب الإلكتروني:
www.daralkotob.com

الحزن في حياة رسول الله

– صلَّى الله عليه وسلَّم –

الدكتور عبد العظيم الديب

اللهم اغفر له وتغمّده برحمتك الواسعة

دار دَوّن للنشر والتوزيع

{رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ}

[آل عمران:53]

الفهرس

قبل البدء.... 9

– استقبال القضاء 19

– حُزْن اليتيم 23

– وَدَاعُ الأمّ 27

– فلتصبر.. وتحتسب 33

– لأصبرنَّ وأحتسبنَّ 39

– ما أردتُ هذا! 43

– أدركتني رحمتها فبكيتُ 51

– هذا شوق الحبيب إلى حبيبه 55

– اصنعوا لآل جعفر طعامًا 61

– ولا نقول إلا ما يُرْضِي الربَّ 65

– إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله 71

قبل البدء....

إنّ الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعدُ، فقد كان لنا عظيم شرف التواصل الكريم مع شيخنا الجليل ووالدنا الفاضل الدكتور عبد العظيم الديب -رحمه الله تعالى رحمة واسعة- أثناء دراستنا في جامعة قَطر، فكان أن تمتّعنا بحديثه واستمعنا لمحاضراته النفيسة، وتوجيهاته القيّمة، التي لا نزال نجد آثارها في حياتنا.

كما كان من أجمل ما حظينا به خلال لقائنا بالشيخ عددٌ من مقالاته القيّمة المنشورة في إحدى الصحف القَطَرية،

في الفترة ما بين (1982/3/18م) وحتى (1982/4/8م)، فانكببنا على التأمل فيها، وقراءتها قراءة دقيقة فاحصة، والتطيُّب بالسيرة العَطِرة لصاحبها -صلوات ربي وسلامه عليه- فوجدنا فيها نفعًا كبيرًا وفائدةً جليلة للأمّة، خاصةً وأننا نعتقد بأن كل مسلم صادق في إسلامه لا بد له من أن يتعرَّف على جُملة طيِّبة من المكارم التي أكرم الله بها نبيَّه، والفضائل التي فضَّله بها على العالمين، من الجنِّ والناس أجمعين، بل والملائكة المقربين، بأدلة ثابتة في الكتاب والسُّنَّة، والنظر السليم فيهما، والاستنباط منهما، فإن ذلك مما يزيده إيمانًا وحبًّا للنبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- هذا الحبّ المقرون بحبّ الله جل وعلا.

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ} [الجمعة:2].

وقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: (ثلاث من كُنَّ

فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبّه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذَف في النار).[1]

وقد لمسنا عبر التأمّل والتمعّن في قراءتها لمسنا جانب الحزن والألم، فكان محلّ وقفة وتأمل، ولم نطّلع من قبلُ على كتابات بهذه الرقّة والشفافية، بحيث تسبر أغوار الحزن والألم في حياة حبيبنا وقدوتنا -صلَّى الله عليه وسلَّم- كما فعل شيخنا الجليل الدكتور عبد العظيم الديب -رحمه الله رحمة وأسكنه فسيح جناته- ولنتمعّن في صدق هذه المشاعر، في كلمات الشيخ عندما يقول:

"تحدّث الكثير من كرام الباحثين والكاتبين ممن تحدث عنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- رسولاً، وزوجًا، وأبًا، وصديقًا، وداعيًا، ومبلغًا... ولكن على حدّ ما أعلم لم يُفرد أحدٌ بحثًا

(1)رواه البخاري:15.

للحديث عن حياته -صلَّى الله عليه وسلَّم- في جانب الحزن، وعندما نتتبّع سيرته نجد الكثير من أسباب الحزن، فقد وُلِدَ -عليه الصلاة والسلام- ولم يستقبلْه أبٌ، ثم فَقَدَ الأمَّ والجدَّ، ولم يُغادرْ دُنْيانا حتى فَقَدَ البنين والبنات والأصحابَ، عَدَا ابنته السيدة فاطمة الزهراء -رضيَ الله عنها وأرضاها- التي تُوفِّيت بعده بستّة أشهر".

كما لمست جانبًا آخر؛ جانبا يخصّ صاحب القلم، الشيخ الدكتور عبد العظيم الديب ولا أخالني أشتطّ كثيرًا حينما أُعبّر عنها بقولي: إنها مشاعر متدفقة من الحزن المتفجّر، لمستها بين حنايا الأسطر، وفي دفء الكلمات المتدفّقة، حينما وجدناه يحدّثنا عن الحكمة العظيمة في مكابدة رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- في فَقْد الأبناء والبنات والأصحاب والأحباب، في تعليم الأمّة حُسْنَ استقبال القضاء، وأن البكاء من الرحمة التي لا تنافي ذلك.

ففيما بين الموت والحياة، هناك دائمًا وأبدًا الإيمان بوجود

ساعة لا تقدَّم ولا تؤخَّر، وأما ما بين الجزع والهلع لوقوع المحتوم، والرضا والتسليم به، فهناك دائمًا وأبدًا الإيمان بالقضاء والقدر، ولكن يبقى خيط رفيع، في كيفية التعبير عن مشاعر الحزن والألم، ويبقى تساؤل: هل ينافي البكاءُ الوقورُ والحزنُ الجليلُ، على فَقْد الأحباب والأصحاب هل ينافي التسليمَ بالقضاء والقدر؟ خاصة وأن الحزن قد يطول، وأن المدامع الحارّة والأشواق الملتهبة لا تتوقّف حتى وإن مرَّت سنوات وسنوات من الفراق؟

لنتمعّنْ في الزوايا الخفية، ولنتأمل الدُرَر المضيئة، بأنوار زاخرة من الحزن والألم، تمضي قُدُمًا إلى البحث عن الحكمة والاعتصام بالتسليم، بما لا يُنافي الرضا بالقضاء والقدر.

يقول الشيخ الجليل: "أخالني غيرَ مُبعد إذا قلت: إن الله جلَّتْ حكمته أراد لنبيه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يُعَلِّم البشرية كيف تُحسن استقبالَ القضاء، وتعرف كيف توفّق بين رقّتها وضعفها وبين رضاها بالقدر، إن هذا الكأس هو

الأمر المحتوم، والنهاية اللازمة، وله في كل يوم ضربة، وفي الإنسان ما فيه من ضعف، وفيه ما فيه من إلْفٍ لمن معه، وحبّ لبنيه وآبائه وأهله وإخوانه، فمن يعينه على ألم الفَقْد وكوارث الموت ولوعة الفرَاق؟؟

إن التغيّر لِمَا درج عليه الناس وما تعارفوا أجيالاً بعد أجيال أمر صعب المنال عسير التحقيق، لا ينفع فيه الكلام، ولا يجدي فيه النصح، فكم من أمور يقتنع بها كثير من الناسٍ فكرًا وعقلاً، ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها واقعًا وفعلاً، ولذلك كان لا بد أن يوجد المثال الذي يُحتَذى فعلاً وواقعًا".

كما نُقارن ذلك بقوله:

"بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! كم بَكَيْت! وكم سَفَحْت الدمع سخيًا على البنينَ والبناتِ من فلذاتِ الأكباد، تُعَلِّم من يُرِيد أن يتعلَّم أن البكاء من الرحمةِ التي يهبها الله في

قلوب من يشاء من عباده، تُريد أن ترقِّق الأكبادَ الغلاظ، وتفتح الأفئدة الصُمَّ، وتؤكد للأفهام العاجزة أن البكاء لا يُنَافي الرضا بالقضاء والقدر".

فكان أن سألت شيخي وأستاذي في هذا الشأن، وعن هذه العبارة بالذات، حينما يقول: "وعندما يتعرَّض المسلم للامتحان بفَقْد الأحبة وتُظلم الدنيا في وجهه، فليس له إلا الهدي النبويّ يتلمَّس الطريق في ضوئه، ويحتمي من حرِّ المصاب في ظلِّه"، فوجدته يؤكد لنا أنه في تلك الفترة -فترة كتابته للمقالات- كان يمرُّ بشعور أليم من الحزن؛ وذلك لوفاة شقيقه -رحمه الله تعالى- فوجد شيئًا من اللوم على ذلك، ولِمَا له من مطالعات واسعة، ونظرة واعية، كان أن بحث عن هذا الجانب في سيرة نبينا الكريم صلَّى الله عليه وسلَّم.

ولقد عِشْت حينًا من الدهر بوجداني، بين حنايا هذه المقالات الماتعة، ما بين عِطْر السيرة الكريمة -على صاحبها

أفضل صلاة وأتمّ سلام- وما بين المشاعر الفيّاضة لصاحب القلم، وما بين الأسلوب الشائق الذي تمكّن شيخنا من جذبنا فيه ببراعة ورِقَّة.

ولرغبتنا في إطْلاع الكثيرين على ما وجدنا فقد اهتَمْنا بِالاستئذان من شيخنا في نشر هذه المقالات في صورة كتَيِّب؛ لِمَا لها من أثر في تثبيت النفوس، خاصةِ في أوقات الأَزمات والشدائد، ونحن نسأله تعالى بِمَنِّه وكرَمِه أن يوفِّقنا لاتِّباع رسوله في سُنَّته وطريقته، وجميع أخلاقه الظاهرة والباطنة، وأن يجعلنا من حِزْبِه وأنصاره، إنه على كل شيءٍ قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم.

شمّه الكواري
(أم جاسم)

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾

استقبال القضاء

لو تتبعنا كلَّ المواقف أو كلَّ الفواجع التي فُجِعَ بها نبينا -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم- منذ مولده يتيمًا، ثم فَقَدَ أمَّه طفلاً، ثم فَقَدَ جَدَّه صبيًا، ثم فَقَدَ القاسمَ ثم عبدَ الله (وَلَدَيْه) ثم زوجَته البارَّة خديجة، وعَمَّه أبا طالب، ثم بناتِه رقيةَ وأمَّ كلثوم وزينب، ومن أحفاده، وعمّه حمزة، وزيد بن حارثة متبنَّاه، وجعفر بن أبي طالب ابن عمِّه، وخاصَّة أصحابه، لو رُحْنا نتساءل عن الحكمة في ذلك فماذا نجد؟

أخالني غيرَ مُبعد إذا قلت: إن الله جلّت حكمته أرادَ لنبيِّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يُعَلِّم البشريةَ كيف تُحْسِن استقبال القضاء، وتعرف كيف توفِّق بين رِقَّتها وضعفها وبين رضاها بالقدر، إن هذا الكأس هو الأمرَ المحتوم، والنهاية اللازمة، وله في كل يوم ضربة، وفي الإنسان ما فيه من ضعف، وفيه ما فيه من إلْف لمن معه، وحبّ لبنيه وآبائه وأهله وإخوانه، فمن يعينه على ألَمِ الفَقْد وكوارث الموت ولوعة الفراق؟؟

إن التغيّر لِمَا دَرَج عليه الناس وما تعارفوا أجيالاً بعد أجيال أمرٌ صعب المنال عسير التحقيق، لا ينفع فيه الكلام، ولا يجدي فيه النصح، فكم من أمور يقتنع بها كثيرٌ من الناس فكرًا وعقلاً، ولكنهم لا يستطيعون تحقيقها واقعًا وفعلاً، ولذلك كان لا بد أن يوجد المثالُ الذي يُحتَذى فعلاً وواقعًا.

ولأن القضية من أخطر القضايا؛ قضية من يعرف لله حقَّه، وقضاءه وقدره.. من هنا كانت الدروس بالغةً، وكان على

من اختارته السماء واصطفته الأقدار أن يُعَلِّم البشريةَ أن يتحمَّل من البلاء في أهله ووَلَدِه ما يتحمَّل، ليُعلِّم الدنيا أن الخيط رفيع، والفرق دقيق بين الجَزَع الهالع والقلب القاسي.

وبين الفَزَع الساخط وبين البكاء الخاشع والحزن الصامت والتسليم والرضا بقضاء الله والكبد الغليظ، وإنما هي دائمًا دمعة صامتة تنبئُ عن رحمة بالقلب الصابر، ولا يساعدها إلا اللسان الذاكر، وليبْقَ في سمع الدنيا قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: (أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ، ثم الأمثلُ فالأمثلُ، يُبتلَى الرجل على حسبِ دينه)[1].

ولنا بعدُ وقفاتٌ أمام لمحاتٍ أو لحظاتٍ نعيشها مع المصطفى -صلَّى الله عليه وسلَّم- في أحزانه، وهو يودِّع الأحبة من البنين والبنات والأهل والأصحاب.

****

(1) رواه البخاري وأحمد في مسنده، والترمذي وابن ماجة.

حُزْن اليتيم

ستظلُّ حياة نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- مصدر الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله؛ نستخرج منها الدروس والعِبَرَ أبَدَ الآباد، وإلى ما لا نهاية، سنظلُّ نجد في دقائق حياة رسولنا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- عظاتٍ وعبراً لا تفنى، وعندما يتعرَّض المسلمُ للامتحان بفَقْدِ الأحبة وتُظْلم الدنيا في وجهه، فليس له إلا الهدي النبويّ يتلمّس الطريق في ضَوئه، ويحتمي من حرِّ المصاب في ظِلِّه.

وقد رأينا من كرام الباحثين والكاتبين ممن تحدَّث عنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- رسولاً، وزوجًا، وأبًا، وصديقًا، وداعيًا، ومبلغًا... ولكن فيما أعلم لم يُفرد أحدٌ بحثًا للحديث عن الحزن في حياته -صلَّى الله عليه وسلَّم- مع أن من صفاته فيما رواه ابن أبي هالة في حديثه أنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان متواصل الأحزان.. نعم هذه الصفة بالرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- أشبه، فلو لم يُقُلْ لنا الواصفون أنه كان متواصل الأحزان، لقلنا نحن ذلك باستقراء أحواله، وبتتبُّع سيرته ومعرفة ما لَقِيَه في حياته، فَقَدْ وُلِدَ -عليه الصلاة والسلام- ولم يستقبله أبٌ، ثم فَقَدَ الأمَّ والجدَّ، ولم يغادر دُنيانا حتى فَقَدَ البنين والبناتِ والأصحابَ، عدا ابنته السيدة فاطمة الزهراء -رضيَ الله عنها وأرضاها- التي تُوُفّيت بعده بستة أشهر.

وُلِدَ نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- يتيمَ الأبِ، ولم تمضِ سوى سنوات قلائل حتى فَقَد الأمَّ، ويقينًا ضاعت كل محاولات جدِّه عبد المطلب أن يحول دون شعوره باليُتْم، فقد كان كلُّ ما حوله ومَنْ حوله يُذكّرهُ بذلك، ويشي له به، يقينًا أدركَ وحشة البيت

الذي لا يظلُّ سقفه إلا امرأة وَلْهَى، فقدَتْ زوجها الحبيب قبل أن تخلع ثياب العُرْس، ومعها خادمتها (أمّ أيمن) ثمّ وديعة الزوج الحبيب، وكل ما بقي لها منه طفلها وقرَّة عينها -عليه الصلاة والسلام- يقينًا قال له جوّ هذا البيت الكثير، ويقينًا رأى آثار الدموع تحوم في هذا البيت هنا وهناك، ويقينًا كانت سحائب الحزن في هذا الركن أو ذاك.

وأخال الأمَّ الشابة وهي تحنو عليه صباح مساء، كانت تقول له الكثير بعينيها، وتبثّه شكواها ونجواها بخلجات فؤادها، ودقَّات قلبها، ولعلَّه قرأ قصَّة أبيه الغائب وحبّها له، ووفاءَها لذكراه، قرأ ذلك في قسمات وجهها ومحاجر عينيها.

ويتأكّد لنا ذلك حين نرى "آمنة" حريصة على أن يعرف ابنُها قبر أبيه، فتشدّ الرحال إلى المدينة، إلى أخوال الزوج الحبيب، تُزير ابنها إياهم، أو إلى قبر الحبيب، تَبُلّ جوانحها، وتبَرِّد كبِدَها بدموعها، أو تُشهده أنها وفَّت لذكراه، وحَنَت على وديعته الغالية التي أودعها إياها، وكأنها أدركت بإلهامٍ دُنوَّ الأجل، فجاءت بطفلها

الذي لَمَّا يبلغ السادسة تُوقفه على قبر أبيه، وكأنَّ هذا القبرَ أمانة غالية تريد أَنَ تؤديها لصاحبها لابنها، ويقف الصبي مع أمِّه أمام القبر، ولك أن تتصور ماذا كان ؟ وماذا قيل ؟ فلم تحفظ لنا ذاكرةُ التاريخ ولا ذاكرةُ الرواة شيئًا من ذلك، ولكننا نستطيع بعينِ الخيال أن نسمَعَ ما كان، وقد لا يبعد الخيال كثيراً عن الحقيقة في مثل هذه الأحوال.

****

وَدَاعُ الأُمِّ

قضت آمنة مآربها مِنْ يثرب ومَنْ في يثرب، وودَّعَت بني النجار أخوال الزوجِ الحبيب، وألقت نظرتها الأخيرة على القبر الغالي، وكأنهاَ تُشهد صاحبَه أنها وفَّت له وعاشت لذكراه، ولم تبتغ زوجًا غيره، كما هي عادةُ نساء عَصْرِها، والأرامل من قوَمِها، وإنما عَنَاها من كل دنياها وديعةُ الفَقيد الغالي التي تركها جنينًا في الأحشاء تحنو عليها، وتعيشُ لها ومن أجلها.

رحيـل:

بدأت القافلةُ تتحرَّك عائدةً إلى مكة، ولعلَّ الطريق بين يثربَ ومكةَ لم يشهدْ أبدا قافلة كهذه أو بعبارة أخرى: قافلة أضعفَ من هذه!!

قافلة قِوَامُها ثلاثة أشخاص، كلٌّ منهم أضعف من الآخر، امرأة مَهِيضَة الجناح، مفجوعة في زوجها، اختطفه منها الموت، ولما يخْلَعْ ثِيابَ العُرْسِ بعدُ. ثم صبيٌّ يتيم بين الخامسة والسادسة، يرى حزنَ أمه وبكاءَها، فيرقُّ لها ويبكي معها، ثم أمُّ أيمن خادمة السيدة وحاضنة الصبيّ..

أيَّة قافلة هذه؟ وكيف جرؤت على خوض الطريق بغير حاد يحدوها وبغير حارس يدفع عنها؟

أخالها وقد أوجعتها الحياة بالضربة الأولى التي اختطفت بها زوجها، لم تعد تجد مجالاً لضربة جديدة أو لألم جديد.

سارت القافلةُ الضعيفة، أو قافلة الضعف يحدوها أنين

وحنين، وفي نهاية مرحلة من مراحل الطريق حطَّ الركبُ الرحلَ ليستريح، وأخذ الصبيُّ يساعدُ الخادمة في ترتيب الأمتعة وضرب الخيمة.

أما الأم فَقَدْ عزفت عن المشاركة في ذلك؛ لفتور شَعَرَت به يسري في أوصالها، وجاءها ابنها الصبي يلثمُها ويقبِّلها، ويحنو عليها، وهي تضمُّه لصدرها وتتشبَّث به، وهي في لهفة وفزع، فهي تشعر بشيء غريب، تشعر بإحساس غامض، بإحساس لا تدري كنهه، لقد اختلط عليها الأمر وغامت الرؤى، فهي لا تدري أيُنتَزع منها الصبيُّ، أم هي التي تُنتزع منه؟ ورويدًا.. رويدًا.. يبرد الجسد وتتراخى الذراعان، والصبيُّ يرى ولا يكاد يُدرك ما يرى، وأمُّ أيمن تشقُّ صرختُها الفضاء، وتنادي "آمنة"، وآمنة لا تجيب!!!

ويرى الصبي الموت من حوله مُجَسَّمًا مُفْزِعًا.

بالأمس كان أمام قبر أبيه، وكان الحديث عن الموت (موت أبيه).. كان يراه دموعًا في عين أمه، ولوعةً في كلماتها، وحسرةً

في نظراتها، هذا هو موت أبيه!!

ويحاول بعقله الصغير أن يعرف عن الموت شيئًا غير هذا، يحاول أن يُدرك سرَّ الموت، أن يعرف معنى الموت، أن يعرف كنه الموت فلا يستطيع!!

أما اليوم، فالموت أمامه!!

هذا إذن هو الموت!!

ينطفئ نور العينين اللتين رأى فيهما رحابةَ الأمل!!

ويحتبس اللسان الذي كان يناغي، وعن المستقبل يتحدَّث!!

ويبرد الجسد الذي كان يحتضن ويدفِّئ!!

وتسترخي الذراع التي كانت تحمي وتدفع!!

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. في الخامسة من العمر ترى الموت، وتدرك الموت، وتعرف الموت!!

عاد الصبيُّ بعد أن رأى أمَّه ينطفئ في عينيها نور الحياة،

وهو بين يديها، وشهد دفنها ومواراتها تحت التراب، عاد مع حاضنته أمِّ أيمن، ولم يمضِ إلا نحو عامين حتى يفقد جدَّه عبد المطلب، ثم سارتَ الحياة، لم تمسك لنا ذاكرتها من أخباره عند فقْد ولديه القاسم وعبد الله، ولكنها ذكرت لنا عام الحزن، عندما فقد زوجته وعمَّه أبا طالب في عام واحد، سمَّاه -صلَّى الله عليه وسلَّم- "عام الحزن"؛ ولهول ما كان واسته السماء بالإسراء والمعراج.

****

فلتصبر.. وتحتسب

ستظل حياة نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- مصدر الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله، وسنظل نستخرج منها الدروس والعبر أبد الآباد، وإلى ما لا نهاية، سنظل نجد في دقائق حياة رسولنا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم- عظاتٍ وعبرًا لا تفنى.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله وبالناس أجمعين، ما أحلمك وأرحمك وأصبرك، كم صبرت وكم احتسبت.

بيديك واريت البنين والبنات من صُلبك، فعلَّمت الإنسانية وأرشدتَ البشرية، كيف تصبر للأحزان، وكيف تَثبُتُ للآلام، وكيف يكون الحزن الفاجع أمارة رحمةٍ في القلوب وقوَّةٍ في الإيمان، وثباتاً في المحن، وباباً إلى الأجر والمثوبة.

الزمان: بعد الهجرة بسنوات.

المكان: مجلس رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم- بين أصحابه.

يجلس الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم- وحوله سعد بنُ عبادة، وأُبَيِّ بن كعب، وزيدُ بن ثابت، وأسامة، ورجال من صحبه الكرام، أحاطوا بالنبي الكريم، ربما كعادتهم في الحرص على أن ينهلوا من علمه، ويأخذوا من نور هَدْيه، وربما لأنهم كانوا يعرفون أن النبي الأعظم -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان على وشك أن يُصاب في أهله بمصاب جديد.

يعلو القومَ وجومٌ وتغشاهم الرهبة، حينما يقف قادم على

المجلس وفي عينيه ما فيها يقول: يا رسول الله، إن ابنتك ترجوك أن تحضرها الآن، فإن لها صبيًّا يُحْتَضر!!

وكأنِّي بصحابته -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم- تمنَّوا لو فَدَوا ابن بنت رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وكأنِّي بهم أطرقوا حتى لا يرَوْا أثَرَ الفاجعة في وجه المصطفى، وهو بهم رؤوف رحيم.

وفي ثبات صابر يفرِّج عنهم ما هم فيه يأتيهم صوتُ النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يقول لرسول ابنته: "ارجعْ إليها، فأخبرها: إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلٌّ شيء عنده بأجل مسمى، فلتصبر وتحتسب".

ولا عليَّ إذ قُلتُ إنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- كان على علم بما يُتوقَّع في بيت ابنته، فلم يكن بالأبِ الذي يغيبُ عنهُ شأنُ أولاده.

ويقينًا إنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لم يُجب دعوةَ ابنته؛

تحاشيًا لمنظرٍ قد رآه وألم قد عاناه، ومُرٍّ قد ذاقه، فمنذ عَقَلَ شهد موتَ أمه بين يديه، ثم ما لبث أن شهد موتَ جدِّه، ثم رُزِئَ بالقاسم الذي كان به يُكنَّى، ثم عبدَ الله، ثم رُقيّة.

فاستعصم -صلَّى الله عليه وسلَّم- بالصبر، ودعا ابنته إليه، ولم يشأْ أن يَجيئها؛ تجنُّبًا لأهوال هذا المنظر.

ولكنَّ البُنَيَّة الثكْلى لا تكفيها الكلمات على ما فيها من زادٍ لكل المصابين، ويقينًا كانت تريد أباها بجوارها ليشدَّ من أزرها، ولتستَلْهمَ من ثباته وإيمانه وصبره.

فيعودُ رسولُها مرةً ثانية ليقف على المجلس الواجِم قائلاً: يا رسول الله، ابن ابنتك تُقسم عليك إلا حَضَرْتَهَا.

فيتحامل -صلَّى الله عليه وسلَّم- ويقوم ساعيًا إلى ابنته وبه ما به، ويذهبُ معه مَنْ في المجلس، ويرفع رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- الصبيَّ بين يديه ونَفْسُه تَقَعْقَع- تضطرِبُ وتتحَشْرَج- فتفيض عيناه، وينظر الصحابة إلى

الدمع المنهمر، فيقول سعد بن عبادة:

- ما هذا يا رسول الله؟

- فيقول صلَّى الله عليه وسلَّم: "هذه رحمةٌ جعلها الله في قلوبِ عِبَادِه، وإنَّما يرحمُ الله مِن عباده الرُّحَمَاءَ".

وتمضي الأزمان والقرون، ولكن يظل في سمع الدنيا وذاكرة البشرية هذه الكلمات تتخذها نورًا في ظلمات المصائب، وعمادًا في فاقِرات الكوارث: "إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى.. فلتصبر ولتحتسب"، "البكاء رحمة جعلها الله في قلوب عباده.. وإنما يرحمُ الله من عباده الرُّحَمَاء"[1].

****

(1) متفق عليه.

لأصبرنَّ وأحتسبنَّ

ستظلُّ حياة نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- مصدر الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله، وما أحوج من تعصف بهم الأحزان، وتهدُّهم الآلام، أن يتفيّئوا ظلال هداه ويستعصموا بِحِمَاه.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله وبالناس أجمعين، ما أحلَمَك وأرحَمَك وأصبَرَك، كم صبرتَ وكم رحمتَ، وكم تحمَّلتَ، وكم عَلَّمتَ وأرشدتَ.

الزمان: بُعَيْدَ معركةِ أُحُد.

المكان: أرض المعركة مصبوغة بالدماء الزكية من الجرحى والشهداء من المسلمين.

يقف رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- بين أصحابه وبه مما أصابه في بدنه: كسرت رَبَاعيتُه، ودخلت حلقتان من المِغْفر في وَجْنَته، وسال الدمُ من جراحه، وبلغ به الجَهْدُ مبلَغَه، حتى لَم يستطعْ أن يصلِّي الظهرَ بأصحابه إلا جالسًا، وبه ما به مما أصاب المسلمين في المعركة، حيث سقط نيفٌ وسبعون شهيدًا، تناثرت أشلاؤهم في المعركة، وقد فَشَت فيهم المُثْلة، قُطِّعت أطرافهم، وجُدِعَت أنوفهم وآذانهم، وبُقِرَت بطونهم، واتَّخذ نساءُ المشركين من الآذان والأنوف والأصابع قلائد ومعاضدَ وقِرَطة وخلاخيل، يزيِّنَّ بها أعناقهنَّ وسواعدهنَّ وآذانهنَّ وأرجلهنَّ، وفيما ذكر المقريزي[1]: "قد مُثّل بجميع الشهداء لم يَفُتْهم إلا حنظلة".

(1) ص، 150.

وبالرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- فوق هذا ما به من إصابته في عمِّه حمزة، فليست المصيبة في حمزة مصيبةً في الأهل والحرم فقط، ولكنها مصيبةٌ للإسلام، للرسالة التي يجاهد -صلَّى الله عليه وسلَّم- ليبلِّغها عن ربه، ومن مثل حمزة؟ ومن يُغني غِنَاءَ حمزة في حماية الرسالة والرسول؟ من مثل حمزة؟ أسد الله وأسد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- في هذا الموقف ينظر للساحة التي امتلأت بالأشلاء المُمَزَّعة للشهداء الأبرار، وعلى حين يقف أمام أشلاء حمزة ويتهيَّأ لدفن الشهداء ولملمة الجراح، إذ به يلمح سوادًا قادمًا إليهم، ويتبيَّن له أنه امرأة، فيقول: "المرأةَ.. المرأةَ"، أي يتوجّه إلى أصحابه أن يُرجعوا المرأة، يُوجعُه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن ترى امرأةٌ من المسلمات ما حدث للشهداء من تشويه وتمثيل، وبنظرة ثانية يعرف -صلَّى الله عليه وسلَّم- المرأة، إنها صفية أختُ حمزة الشهيد الممزَّق الأوصال المقطَّع الأطراف

المبقور البطن المسلوب الكبد، فكيف تطيق صفية أن ترى هذا المنظر، ويرقُّ قلبه -صلَّى الله عليه وسلَّم- وتدركه الرحمة والرأفة فيقول لابنها الزبير بن العوام: "يا زبير، الْقَها فأرْجِعْها؛ لا ترى ما بأخيها".

فيقول لها الزبير: يا أُمَّه (أي يا أمي) إن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- يأمرك أن ترجعي، يا أُمَّه: إن بالناس تَكشُّفًا.

تجيب صفية بثبات مؤمنٍ صابر: ولِمَ؟ وقد بلغني أنْ مُثِّلَ بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله.

وعندها قال صلَّى الله عليه وسلَّم: "خَلِّ سبيلها"، فأتت حمزة، فنظرت إليه، وصَلَّت عليه، واسترجعت: "إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. لأصبرنَّ ولأحتسبنَّ".

****

ما أردتُ هذا!

ستظل حياة نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- مصدر الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله، وما أحوج المكلومين المحزونين أن يَلُوذُوا بسيرته وأن يتعلموا من هَدْيِه، عسى أن ينالوا من رحمته وشفقته.

بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ الله.. كم صبرتَ.. وكم تحمَّلتَ.. وكم عَلَّمتَ وأرشدتَ.

الزمان: يوم دخول رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- بعد مصابهم في أُحُد.

المكان: ما بين ديار بني عبد الأشهل، وبيت النبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- عائدٌ من أُحُد بعد أن وارى الشهداء الأبرار ولمَّ الشَّعْث، وأعاد نظم الصفِّ، وأمر عُمَر بالردِّ على أبي سفيان حين نادى شامتًا بالمسلمين والإسلام: "اعْلُ هُبَل".

فقال عُمَر: الله أعلى وأجلُّ.

قال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بَدْر.

فأجاب عُمَر: لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار.

قال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم.

فأجاب عُمَر: الله مولانا ولا مولى لكم.

فقال أبو سفيان: ألا إن موعدكم بدر على رأس الحول.

فقال رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- لعُمَر: قلْ نعم هو بيننا وبينك موعد.

عادت لمعسكر المسلمين قُوَّته وعَزْمُه، وانفكَّ من أسر هذه الوقعة المفاجئة التي جاءت بسبب مخالفة الرُّمَاة عن أمر رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقبل أن يتخذ المسلمون طريقهم إلى المدينة استوثق النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- انصراف المشركين إلى مكة، وأنهم لن يميلوا على المدينة، لينهبوها ويأخذوا الذراري والنساء.

قال صلَّى الله عليه وسلَّم: "والذي نفسي بيده، لئن ساروا إليها لأسيرنَّ إليهم، ولأناجزنَّهم فيها".

وفي الطريق إلى المدينة -بين أُحُد والمدينة ثلاثة كيلومترات- لمَّا كانوا بأصل الحرَّة، وقف -صلَّى الله عليه وسلَّم- فقال: "اصطفوا حتى نثني على ربنا"، فوقفوا خلفه صُفُوفًا، وكان

معه أربع عشرة امرأة وقفْنَ خلف الرجال، وأخذ يدعو صلَّى الله عليه وسلَّم: "اللهمَّ لك الحمد كله، لا قابضَ لِمَا بَسَطْتَ، ولا باسطَ لِمَا قَبَضْتَ"... إلى آخر ما قال.

وأخذ المسلمون في الطريق، حتى طَلَعُوا على ديار بني عبد الأشهل وهم يبكون شهداءهم، فخرج النساءُ ينظرْنَ إلى سلامته -صلَّى الله عليه وسلَّم- وجاءت أمُّ سعد بن معاذ تَعْدو نحو رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وسعدٌ ابنُها آخذٌ بعنان فرسه -صلَّى الله عليه وسلَّم- فدَنَتْ حتى تأمَّلت رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وقالت: "أمَا إذا رأيتك سالمًا، فقد أشْوَت (هانت) المصيبة"، وكانت قد أُصِيبَت في ابنها عمرو بن معاذ، فعزَّاها رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

وإذ سَلمت المدينةُ والْتَأَم الشملُ، وعادت لجيش المسلمين قُوَّته، وضُمِّدَت الجراح، فقد آن للحزن على الأَحبة أن يجد مكانًا، فيسمع -صلَّى الله عليه وسلَّم- بكاءَ الأنصار على

شهدائهم، فتندُّ منه شهقةٌ قائلاً: "ولكنَّ حمزة لا بَوَاكِيَ له".

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!!

كم بكيتَ.. وكم سفحتَ الدمع ثخينًا على البنين والبنات من فلذات الأكباد، تُعلِّم من يريد أن يتعلَّم أن البكاءَ من الرحمة التي يهبها الله في قلوب من يشاء من عباده، تريد أن ترقِّق الأكبادَ الغلاظ، وتفتح الأفئدة الصُّمَّ، وتؤكد للأفهامِ العاجزةِ أن البكاءَ لا ينافي الرضا بقضاء الله وقَدَرِه.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. ماذا كنت تعني بقولك الباكي: "ولكنَّ حمزة لا بَوَاكِيَ له"؟ لقد بكته صفية، وبكته فاطمة.

يروي المقريزي في الإمتاع أن صفية جلست تبكي عند حمزة، فجعلت إذا بكت بكى رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وإذا نَشَجت نَشَجَ، وكانت فاطمة -رضي الله عنها وأرضاها- تبكي، ورسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- كلما بكت يبكي، وقال: "لن أصاب بمثلك أبدًا".

إن البكاء من الرحمة.. إن البكاء من الرقة والشفقة.. إن الدمع يطفئ حَرَّ الكبد ويُبَرِّد نار القلب:

لم يُخلق الدمع لامرئ عبثًا *** الله أدرى بلوعة الأحزان

كان سعد بن معاذ قد سَمِعَ آهة النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- "ولكنَّ حمزةَ لا بَوَاكِي له"، فنهض إلى نسائه فساقهنَّ جميعًا حتى لم تبقَ امرأة إلَا جاء بهـا إلى بيت رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- فبكين حمزةَ، ويقـال: إن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- جاء بنسـاء بني سلمة، وجـاء عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه- بنسـاء بلحارث بن الخزرج، فلما كان الغدُ سأل صلَّى الله عليه وسلَّم: مـا هذا؟ فقيل: نساءُ الأنصار يبكين حمزة!! فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: "ما أَردْتُ هذا"، ونهاهنَّ الغدَ من النَّوْح أشدَّ النهْي.

بأبي أنتِ وأمي يا رسول الله.. كانت كلمتك: "لكنَّ حمزةَ لا بَوَاكِي له" أنَّةُ مكْلوم، ونفْثةَ محزون، يودُّ لو يعينُه الباكون

على مُصابه، ويُسعفه المُسْعفون على آلامه، فأخذها صَحْبُك الكرامُ على ظاهرها، وجاءوا بنسائهم يبكينَ حمزة، ولكن "ما أردتَ هذا"، إنها كانت كلمة تُعرب عن ألم يَهُدُّ الجبال وحزنٍ فوق الاحتمال، وأبدًا لم تكن دعوةً للنوح والنَّدْب.

وما أعدلها سنتك -صلَّى الله عليه وسلَّم- البكاء للحزانى والثكالى، ولكن من غيرِ نوحٍ ولا صوت، من القلب لا من اللسان.

****

أدركتني رحمتها فبكيتُ

ستظل حياة نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- مصدر الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله، وسنظلُّ نتعلَّم منها الدورس والعبر.. وأحوج ما يكون الإنسان إلى العون والعدد، حين تعصف به الأحزان، عند فَقْد من يُحب، فما أحسن أن نحتمي بظل هُداه، ونلجأ إلى نوره.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله وبنفسي وبالناس أجمعين.. كم تحمَّلتَ.. وكم صبرتَ.. وكم احتسبتَ.. وثم كم علمتَ وأرشدتَ...

تمضي السنون والسنون بعد ذيَّاك اليوم البعيد (يوم الأبواء) المشئوم، يوم ودَّع (الطفل) ابن السادسة أمه آمنة بنت وهب، وقبرها بيديه الصغيرتين، أو قُلْ: شارك في قبرها، أو قُل: شَهِدَ قبرها.

يُتِّم الصبيُّ المكلومُ رحلته إلى مكة، ويكون ما يكون مِنْ صباه وشبابه، ثم يبعثه الله رسولاً إلى قومه، ويلقى منهم ما يَلقى.. حتى يهاجرَ إلى المدينة وتمضي به السنون في جهاد دائم مِنْ سرايا متصلة وغزوات متوالية، وصراع مع التآمر والخيانة من يهود يثرب وما حولها، وسَعْي متواصل لبناء دولة الإسلام في الأرض على ضوء هَدْيَ السماء، ووفود ورسل.

ويبلغ صبيُّ الأبواء ورسولُ اليوم نحو الستين من عمره، فيكون قد مضى على يوم الأبواء أكثر من خمسين عامًا!! نعم أكثر من خمسين عامًا مضت على وداع الأم، أكثر من خمسين عامًا وكل عامٍ منها حافلٌ بما يشْغل ويُلهي ويُنسي.

لكن هل نسي صبيُّ الأبواء ورسولُ اليوم أمَّه؟!

يا سبحان الله.. لم تستطع هذه السنون التي أرْبَت على نصف قرن من الزمان أن تمحو صوت الأمِّ من ذهن اليتيم صلَّى الله عليه وسلَّم.

يروي ابنُ سعْد في طبقاته أن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- لما مرَّ بالأبواء في عُمرة الحديبية قال: إن الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فأتاه، وأصْلحه، وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه، فقيل له في ذلك: فقال: "أدركتني رحمتها".

بأبي أنت وأمي يا رسول الله.. ما أرحَمَك وأوْصَلَك.. إنها رحمةٌ يضعُها الله في قلوب عباده، ومن أرحم منك يا رسول الله!

وفيما رواه عبد الله بن مسعود قال: خرج النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- يومًا وخرجنا معه، فأمرنا فجلسنا، ثم تخطَّى

القبور حتى انتهى إلى قبر منها، فجلس إليه فناجاه طويلاً، ثم ارتفع صوته ينتحب باكيا، فبكينا لبكاء رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- ثم إن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- أقبل إلينا فتلقَّاه عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فقال: ما الذي أبكاك يا رسول الله؛ فقد أبكانا وأفزعنا؟ فأخذ بيد عمر، ثم أومأ إلينا فأقبلنا، فقال: أفزعكم بكائي؟ فقلنا: نعم يا رسول الله -فقال ذلك مرَّتين أو ثلاثاً- ثم قال: إن القبر الذي رأيتموني أناجيه قبر أمي آمنة بنت وهب، وإنِّي استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي.

هكذا ظلَّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- يرنو إلى هذا القبر الغالي، يزوره، ويبكيه ويبكي أصحابُه ببكائه، وأخالني على صواب إذا قلت إنه كان بهذا يُعلِّم قريبي العهد بالجاهلية القاسية والبداوة الغليظة كيف ترِقُّ القلوبُ، وتخشعُ الأفئدة، وتسحُّ العيون، وأن البكاء من الرحمة، والرحمة من الله، وأن الشوق إلى الأحبة من ساكني القبور برٌّ وصِلة، ما لم يكن ضجراً بالقضاء، أو ردًّا للقدر، أو لقلقة.

هذا شوق الحبيب إلى حبيبه

ستظلُّ حياة نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- مصدرَ الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله، وحين تعصف بالمسلم الأحزان وتسدُّ عليه منافذَ الرؤية الآلامُ، لا يجد نورًا يُخرجه من ظلمات محنته إلا في سيرة المصطفى -صلَّى الله عليه وسلَّم- وهديه.

الزمان: عقب غزوة مؤتة.

المكان: مسجد رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- في

المدينة، ثم بيت زيد بن حارثة.

المدينة كلها تتلهَّف على أخبار الجيش المجاهد الذي ذهب ليثأر لرسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- الذي كان يحمل رسالة المصطفى إلى أمير بصرى، فَعَرضَ له من قتله ومثَّل به في مؤتة، ولا شك أن أخبار الجيش كانت شُغْل المدينة الشاغل، فقد كانت هذه أوَّل مرة يخرج جيشٌ للمسلمين على هذا البُعْد البعيد، وأول مرة يلتقي فيها المسلمون الروم، وكأني بالمدينة غادية رائحة إلى القائد الأعلى للجيش -صلَّى الله عليه وسلَّم- تتردَّدُ بين البيت والمسجد، ملهوفةً إلى خبر عن هذا الجيش الضارب في هاتيك الفجاج التي لم يسلكها جيشٌ عربي من قبل، فيستجيب الله لها.

ويصعد النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- المنبر، ولعل المسلمين بالمدينة لم يكونوا يتوقَّعون خبرًا عن مؤتة وجيش مؤتة، فلم يكن قد حضر أحد من ميدان القتال، ولكن رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- قد كشف له ما بينه وبين الشام،

فهو ينظر إلى معتركهم.

قال صلَّى الله عليه وسلَّم: "أخذ الراية زيدُ بن حارثة فأُصيب، ثم أخذها جعفرِ بنُ أبي طالب فأُصيب، ثم أخذ عبد الله بن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم"[1].

وكان مصاب النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- في مؤتةَ مُفجعًا، فقد أُصيب زيد، وجعفر، فأما زيد فهو زيد بن محمد قبل أن يحرِّم الإسلامُ التبنِّي، وهو زيد بن حارثة الذي كان مِن خبره أن جماعةً اختطفوه غلامًا صغيرًا من أهله، ثم باعوه عبدًا رقيقًا لخديجة بنت خويلد -رضي الله عنها وأرضاها- التي وهبته بدورها لزوجها محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- قبل البعثة، ولما جاء حارثة أبو زيد ومعه عمه يتتبَّعون ابنهم حتى وصلوا النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- فقالوا له:

"يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم

(1) رواه البخاري من حديث أنس بن مالك.

الله تفكُّون العاني، وتُطعمون الأسير، جئناك في ولدنا، سندفع لك في فدائه من المال حتى ترضى".

فقال محمد صلَّى الله عليه وسلَّم: "أوَغيرَ ذلك؟ ادعوه فخيِّروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء".

فقال زيد: "ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت منِّي بمكان الأبِ والعمِّ".

فعرف لجوار محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- قدره، وفضَّل أن يكون معه عبدًا رقيقًا على أن يعود إلى أبيه وعمِّه، فكافأه النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- وأعلن أنه منذ اليوم زيد بن محمد، وعاش حبيبًا إليه، أثيرًا لديه، ووُلِد له أسامة بن زيد الصحابي الجليل: الحِبُّ ابنُ الحِبِّ.

ذلك هو زيد بن حارثة، قائد مؤتة وشهيدها، حزن عليه النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- ومن معه من شهدائها،

وحزن معه المسلمون، وتناشدوا الأشعار في بُكائهم، فكان مما قال حسانُ بن ثابت شاعرُ الرسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم:

تأوبني ليلٌ بيثربَ أعسرُ *** وهمٌّ إذا ما نومَ النَّاسُ مسهرُ
لذكرى حبيبٍ هيّجتْ ثمّ عبرةً *** سفوحاً، وأسبابُ البكاء التذكرُ
بلى إنّ فقدانُ الحبيبِ بليةٌ *** وكمْ منْ كريمٍ يُبتلَى، ثمّ يصبرُ

وكان -صلَّى الله عليه وسلَّم- يزور بيتَ زيدٍ مواسيًا بنيه، فأتاهم ذات يوم فأجهشت بنتُ زيد، فبكى رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- حتى انتحب، فقال له سعد بن عبادة رضي الله عنه: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: (هذا شوق الحبيب إلى حبيبه).

أجل يا رسول الله، شوق الحبيب إلى حبيبه.. هكذا علَّمتنا.. تَرِقُّ للثكلى، وتبكي لليتامى، وتشتاق إلى الأحبة، ولكن مع الصبر والتسليم للقضاء.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله وبالناس أجمعين.. ما أحلَمَك وأصبَرَك.. كم صبرتَ.. وكم رحمتَ.. وكم علَّمتَ وأرشدتَ.

****

اصنعوا لآل جعفر طعامًا

إلى الأبد ستظل حياة نبينا محمد -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم- مصدرَ الإلهام والهدى، وحينما تعصف بالمسلم الأحزان وتسدُّ عليه منافذَ الرؤية الآلامُ، لا يجد نورًا يُخرجه من ظلمات محنته إلا في سيرة المصطفى -صلَّى الله عليه وسلَّم- وهديه.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله وبالناس أجمعين.. ما أرحَمَك

وأحلَمَك وأصبَرَك.. كم صبرتَ.. وكم رحمتَ.. وكم علَّمتَ وأرشدتَ.

كان مصاب رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- في أهله يوم مؤتة مضاعفًا، فقد أصيب بزيد بن حارثة مولاه ثم متبناه ثم صاحبه وأميرُ سراياه، الذي قال له: "أنت مولاي، وأنت منِّي وأحبُّ القوم إليَّ"[1].

كما أصيب بجعفر بن أبي طالب، ابن عمِّه، وصاحبه، الذي قال له: "أنت جعفر أشبه خَلْقُك خَلْقي، وأشْبَه خُلُقُك خُلُقي، وأنت مني وشجرتي"[2].

وكان عليه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يتحمَّل هذا المصاب المضاعف، إلى ما حُمِّل من مصائب من قبل في بنيه وبناته وآله وذوي قرباه.

(1) رواه الترمذي.

(2) رواه الترمذي.

وكان عليه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أن يواسي آل جعفر فيما يواسي مَنْ أُصيب من المسلمين، فدخل على أسماء بن عُمَيْس -امرأة جعفر- فقال: "يا أسماء أين بنو جعفر؟"، فجاءت بهم إليه فضمَّهم إليه وشمَّهم، ثم ذرفت عيناه فبكى، وقامت أسماء تصيح، واجتمع إليها النساء، فجعل رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- يقول: "يا أسماء لا تقولي هجرًا، ولا تضربي صدرًا".

وخرج على ابنته فاطمة وهي تقول: "واعمَّاه"، فقال: "على مثل جعفر فَلْتَبْكِ الباكية"، ثم قال: "اصنعوا لآلِ جعفرَ طعامًا؛ فقد شُغلوا عن أنفسهم اليوم"، وكان يمسح على رأس عبد الله بن جعفر وعيناه تُريقان الدموع، حتى لحيته تَقْطُر.

مواساة المصابين أم ولائم المعزّين:

لننظر حولنا اليوم فنرى فيما ضيعوا من سنن، وفيما اخترعوا من بدع، بدلا من أن يصنعوا لآل الميت من الطعام،

ويواسوهم بما يقدِّمون لهم من صِلاتٍ في أيام العزاء، نراهم ينتظرون منهم أن يقيموا الولائم للمعزِّين، وينصِبوا الموائد للمواسين، وحتى رأينا المباهاة والمفاخرة في هذه العادات المبتدعة تصل في بعض البلاد الإسلامية إلى حدِّ خرابِ بيت الميِّت واضطرار آله إلى الوقوع في ضائقة الفقر وذلِّ الدين، ونسوا سُنَّة نبينا -صلَّى الله عليه وسلَّم- "اصنعوا لآل جعفرَ طعامًا".

كما نجد بيننا من قسا قلبه وتحجَّر كبده، فراح يَنحَى باللائمة على من غلبته الرحمة فخشع ودمعت عينه ألما لحبيب فارقه، أو ليتيم رآه، أو حزنا لثاكل مرَّ به، ويغفل هؤلاء عما سنَّه نبيُّ الرحمة -صلَّى الله عليه وسلَّم- بكاء من غير صياح ولا خطأ.. "يا أسماء لا تقولي هُجْرًا ولا تضربي صدرًا".

****

ولا نقول إلا ما يُرْضِي الربَّ

ستظلُّ حياة نبينا محمد -صلى الله وعلى آله وصحبه وسلَّم- مصدرَ الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله، وسنظلُّ نستخرج منها الدروس والعبر أبدَ الآباد، وإلى ما لا نهاية.. سنظلُّ نجد في دقائق حياة رسولنا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- عظات وعبرًا لا تفنى، وعندما يتعرض المسلم للامتحان بفقد الأحبة، وتُظلم الدنيا في وجهه، فليس له إلا الهَدْي النبوي يتلمّس الطريق في ضوئه، ويحتمي من حَرِّ المصاب في ظلِّه.

بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله وبالناس أجمعين.. كم تحمَّلتَ.. وكم صبرتَ.. وكم علَّمتَ.. وكم أرشدتَ.

الزمان: ما بين السنة الثامنة للهجرة والسنة العاشرة.

المكان: المدينة المنوَّرة ما بين العوالي والبقيع.

نيّف محمد البشر الرسول على الستين من عمره -صلَّى الله عليه وسلَّم- وبدا وكأنَّه يستشرفُ النهاية، فقد بلَّغ رسالة السماء إلى الأرض، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، وأقام دولة الإسلام على الأرض، فقد زالت الجاهلية القرشيةُ، وفُتِحَت مكة، وحمل أهلها- مع العرب جميعًا- لواء الجهاد في سبيل الله.

وعلى الكبر في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، يولد له -صلَّى الله عليه وسلَّم- إبراهيم، فأيَّة فرحة بهذا الوليد الذي جاء يُحيي الأملَ في العَقِب؟ وتلك فطرةٌ إنسانية، وأيَّة فرحة بهذا الوليد الذي جاء عِوضًا من السماء عمَّن أقبره -صلَّى الله عليه وسلَّم- بيديه من بنيه، وأيَّةُ فرحة

بهذا الأمل الذي جاء باسمًا يشفي ما كان من شماتة الأعداء الذين عيَّروه بفقد الأبناء وسمَّوه بالأبتر ؟!

فهي فرحةُ أبٍ يشتاق للعَقب بفطرته، وفرحةُ أبٍ ذاقَ مرارةَ الثكل لبنيه، وفرحة أَبٍ في بيئة تُحب التكاثر من الأولاد، بل فرحة رسولٍ يُحبُّ التكاثرَ والتناسل لأمَّته، وكان من فرحه بالوليد أنْ وهب لمن بشَّره به عبدًا، وكان من أمله في الوليد أن سمَّاه إبراهيم، تيمُّنًا بجدِّه الأكبر إبراهيم- عليه السلام- وأملاً أن يكون من ذريِّته وولده مثل ما كان من ذريِّة إبراهيم، وكان من سعادته به أنه كان شديد الشبه بأبيه -صلَّى الله عليه وسلَّم- وكان من حبِّه له أن عقَّ عنه بكبشين يوم سابعه، وتصدَّق عنه بِزِنَة شعره فِضَّة.

وبدأ الطريق إلى عوالي المدينة؛ حيث يُسْتَرضَع الوليدُ الحبيب، يشهد تَرْداد الوالد الأمل على ولده، يُمتع به نظرَه، ويملأ من نور وجهه قلبه، ويروي برؤيته عاطفته.

فعن أنس -رضي اللهُ عنه وأرضاه- "كان إبراهيم مُسْترضعًا في عوالي المدينة، وكان -صلَّى الله عليه وسلَّم- ينطلق ونحن معه فيدخل البيتَ، فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع"[1].

ونما الوليد الحبيب وأخذ يحبو، وبدا الأملُ فسيحًا رحيبًا مشرقًا مضيئًا.. مضى نحو عامين، وقبل أن يخرج المصطفى -صلَّى الله عليه وسلَّم- بالمسلمين لحجَّة الوداع بشهرين أو أكثر كانت الفاجعة!!

جاء الخبر من عوالي المدينة إن إبراهيم يُحتَضر.

وتُمْسِكُ الدنيا أنفاسَها، وحبيب الله ومصطفاه يتناول الصغيرَ المحتضر من حِجْر أمه ويضعه في حِجْره، ويجود إبراهيمُ بأنفاسه، ويجود المصطفى -صلَّى اللهَ عليه وسلَّم- بَعَبَرَاته، ويقول: "إن العين تدمع، وإن القلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون"[2].

(1) رواه مسلم.

(2) رواه البخاري.

يا اللـه!!

لِمَ رُزِقَ المصطفى -صلَّى الله عليه وسلَّم- بإبراهيم، إذا كان مقدَّرًا أن يموت في هذه السنِّ؟!

وبعبارة أخرى: لِمَ تعرَّض المصطفى -صلَّى الله عليه وسلَّم- أكرم خلق الله لهذا البلاء في مثل هذه السنِّ؟!

والجواب: فيما نرى -وأرجو أن أكون مُصِيبًا- أن حكمة الله اقتضت أن تتلقَّى الإنسانية درسًا أخيرًا في الصبر على البلاء والرضا بالقضاء، وحتى يكون لهذا الدرس الأخير أثرُه، ويبقى إلى الأبد في أُذُن البشرية صداه، وكان المُصاب بهذا الحجم الفادح، فمهما تكن في الدنيا مصيبة لن تكون أبدًا بمثل إصابة نبينا الحبيب -صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم- في ابنه إبراهيم.

****

إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله

ستظلُّ حياة نبينا محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم -مصدرَ الإلهام والقدوة إلى ما شاء الله، وأحوج ما يكون الإنسان إلى نور هداه وظل رحمته حينما تعصف به الأحزان وتهُدُّه الآلام.

الزمان: مُنْصَرَف النبي -صلَّى الله عليه وسلَّم- من دفن إبراهيم.

المكان: البقيع والطريق منه إلى المدينة.

حُمِلَ إبراهيمُ بن محمد -صلَّى الله عليه وسلَّم- من عوالي المدينة (حيث مات) إلى البقيع (حيث قُبِرَ)، وكان رسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- وعمُّه العباس جالسَيْن على شَفير (حافة) القبر حين نزل الفضلُ بن العباس، وأسامةُ بن زيد إلى القبر يوسِّدان الوليدَ الحبيبَ التراب، ورسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- يتشاغل عمَّا به، فيمدُّ أصابعه يسوِّي بها التراب على القبر، ويرى فُرجَةً في اللحد، فيناول الحفارَ مَدَرَةً (حصاة)، وهو يقول: "إنها لا تضرُّ ولا تنفع، ولكنها تقرُّ عين الحيِّ".. وفي رواية: "ممَّا يسلِّي بنفس المصاب"، ويقول: "هل من أحد يأتي بقِرْبة؟".

فأتى رجل من الأنصار بقِرْبة ماء، فقال: "رُشَّها على قبر إبراهيم".

ويعود الجمع الحزين ورسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- بينهم يردِّد: "إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون، يا إبراهيم لولا أنه أمر حقّ ووعد صِدْق، وإنها سبيلٌ مأتيّة، وأن آخِرَنا سيلحق أوَّلنا، لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا)، ويرى الصحابة الكرام ما به -صلَّى الله عليه وسلَّم- ويودون لو كان ما به يحمل عنه.. ولكن..

رُوي أنه -صلَّى الله عليه وسلَّم- استقبل الجبل، فقال: "أَيُّها الجبلُ! لو كان بك مثل ما بي لهدَّك، ولكن إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون".

وشاء الله سبحانه وتعالى أن تَكْسَفَ الشمسُ في ذلك اليوم، والناس يَرْونَ هَوْلَ الفاجعة وعِظَم الكارثة التي نزلت برسول الله -صلَّى الله عليه وسلَّم- فلا عليهم أن يقولوا: إن الشمس كسِفَت لموت إبراهيم، وإن الله أظلم الكون؛ مشاركة لأبي إبراهيم صلَّى الله عليه وسلَّم، وسمع الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ذلك، محمد (البشر)، (الإنسان)

الذي ينوء بأوقار الحزن، يسمع هذا.. فلا عليه، بل ربما يجد في ذلك عزاءً، فإن الحزين يرى في الرعد صُراخًا ويرى في المطر دموعًا!!

ولكن محمدًا الرسول -صلَّى الله عليه وسلَّم- ينتبه لما يقال ويفزَعُ له، فخرج إلى الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "أما بعدُ، أيُّها الناس.. إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد، ولا لحياة أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد"، ودمعت عيناه.

إنه محمد في أكمل صفاته.. إنه الكمال في طرفيه.. كمالٌ في البشرية؛ فحُبُّه لبنيه أكمل حُبٍّ، وحزنه على بنيه أكمل حُزْن، وكمالٌ في النبوة والرسالة، فيقظته للتبليغ والبيان لا تحجبها آلام الفقد ولوعة الثُّكل، وكأنِّي بالشمس قد انكسفت في عينه -صلَّى الله عليه وسلَّم- حقيقةً، ولكنَّ حقَّ الرسالة وواجب البلاغ جعلاه ينسى كل ما به،

وينادي في الناس: "إنَّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله"... صلَّى الله عليك وسلم دائمًا وأبدًا يا رسول الله..

عبد العظيم الديب
(أبو محمود)
الدوحة – قطر 1982